Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
Vol. 30, Issue No. 01, 2023

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
المجلد الثلاثون، العدد 01، 2023م.

البنيوية وما بعدها[1]

Structurlism & Since

عمر فاروق
زميل باحث بالمركز الإسلامي للبحوث والترجمة،
باكستان، فرع كندا.

Abstract

The literary theory of *Structuralism* developed to fill the gap and remove deficiencies found in *New Criticism* that appeared primarily in reaction against the overemphasized social aspect in literary criticism and to oppose the preference given to the modern science and industrialization while studying the literary text. This is why the theory of *Structuralism* was considered as an extension to *New Criticism* and called at first *New New Criticism*. It founded itself on the grounds of intellectual discourse that relied upon the theories and revelations made by the modern physics which discarded the concept of *cause and effect* and put forward the idea of an unseen hidden *relation* among the objects of nature, which they described as *structure*. This new concept of relations – called *Relativity* – didn't remain confined to the realm of physics, rather it passed on to the human sciences such as philosophy, psychology, anthropology, sociology and linguistics. It found its way into literary criticism, originating from the *linguistic theory* propounded by de Saussure, passing through Roman Jacobson's phonetic criticism and the

anthropological and stylistic studies made by Levis Strauss. *Structuralism* derived most of the rules in analyzing literary text from *Stylistics*, overlooking its relation to the writer and would-be response by the reader, in addition to discounting its socio-historical perspective. Instead, it analyzes the text to unveil the layers of meanings underlying the surface with reference to other contemporary or previous olden texts (which is termed as *intertextuality*), without getting fixed to a certain connotation, letting the door open to anyone who has the idea of *basic structure* of the text under study. This *indeterminacy* of meaning had been the turning point towards *Post-Structuralism* including the theory of *Deconstruction*.

Keywords: Structuralism, New Criticism, Deconstruction, Roman Jacobson, Levis Strauss, De Saussure, Stylistics.

مقدمة:

إن الآداب والعلوم بعامَّة – والفلسفة منها بصفة خاصة – تبحث عن كلية أو قاعدة أساسية تمكِّن الإنسان من فهم الموجود (Existent/Becoming) والسيطرة عليه، كما تسهِّل عملية إدراك الوجود (Existence/Being) ووعيه، ثم الوصول إلى ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا ومعرفة كنهها في محاولةٍ للتغلب عليها أو حل ما ينشأ من المشاكل الداخلة في إطارها على الأقل. والأمر في ذلك ليس كما هو في الصناعات التي قامت على أساس حاجة الإنسان إلى الأشياء الضرورية في حياته. أما الفنون – أدبيةً كانت أو غيرها – فقد انبثقت أصلاً عن حاجته للتعبير عن نفسه والتطهير لها.

هذا، وإذا كنا نتحدث عن النظرية (theory) التي تتشكل على أساسها مناهج مختلفة في العلوم والفنون في بحثٍ عن أداة مثلى: تلك التي نستعين بها لتفسير ظواهر علمية وفنية شتَّى – وذلك للتوصل إلى حقيقة أو كنه الأشياء

المطروحة بين أيدينا عند التعرض والدراسة لهذه العلوم وتلك الفنون والآداب – فلا بد إذن أن نوجد لنا فلسفة معينة نستخرجها من خلال بحوث علمية أجراها الإنسان في حقول مختلفة من فروع المعرفة. وهذه الفروع المعرفية الكثيرة التي تمسك بعضها بيد بعض تتَّحد فيما بينها لما تكون قد تخلَّصت من خصائصها الفردية الخاصة وارتفعت إلى درجة إيجاد فلسفة موحَّدة تقدِّم بدورها حلاً مشتركا لما يقابل الإنسان من المشكلات في المجال المعرفي البحت.

فعلى ذلك نجد العلوم كلها يتاخم بعضها بعضاً، سواءٌ أكانت علوماً طبيعية أم إنسانية. وكلٌّ منها يمد الآخر بنظريات وفلسفات ليطبِّقها في مجاله فيخرج بنتائج أكثر دقةً.

أما في مجال النقد الأدبي – الذي نحن بصدد العرض لبعض نظرياته الحديثة – فنجد التقدم العلمي الهائل قد أثر فيه تأثيراً كبيراً من حيث التنظير والتقعيد. وإذا كانت المناهج النقدية القديمة وثيقة الصلة بالأدب، لم تبعد عنه كثيراً لاتِّخاذ المادَّة الخام في سبيل إيجاد نظرية لها، فالمناهج النقدية الحديثة قد جابت الآفاق قبل الوصول إلى ما كانت قد بدأت منه المسيرة من وطن نقدي خالص، متَّخذةً لها من فروع المعرفة الأخرى نظرية كأداة نستخدمها في تحليل النصوص الأدبية وتفسيرها.

هذا، وأما فيما يتعلق بالمنهج النقدي البنيوي – الذي نحاول في هذا المقال إلقاء بعض الضوء على أصل نشأتها وماهيتها – فقد وجدنا الأمر أكثر صعوبة من المناهج والنظريات الحديثة الأخرى من مثل الشكلانية أو الشكلية (Formalism) والنقد الجديد (New Criticism) والأسلوبية (Stylistics) والنقد المبني على استجابة القارئ (Reader Response Criticism) والنقد النسائي أو الأنثوي (Feminist Criticism). على كلٍّ، فهذه جرعة أتمنى أن تبرد شيئاً من غلتنا. والتاريخ لأصل البنائية أو البنيوية الذي سردته ليس تاريخاً بمعنى الحكاية الزمنية المتسلسلة، وإنما هي مقتطفات متقطعة أخذتها من هنا وهناك وربطت

بينها على حسب فهمي لها لتبدو في صورة موصولة تعطي مفهوماً منظماً شيئاً ما، كما أتيت في النهاية ببعض النقاط المشابهة لما جاء في النظرية البنيوية من أفكار من النقد الشرقي القديم، ولكنه من الضروري أولاً إيراد ما اصطلحوا عليه من المراد بالبنية. فما هي البنية عند البنيويين؟

البنية وماهيتها:[2]

إنه قد أسفر التقدم في مجال الفيزياء وغير ذلك من المجالات العلمية في القرن الماضي عن نشوء نظرية قائلة بكون المظاهر الحياتية والكونية المختلفة قائمة على أساس البناء أو البنية (structure) دون قيامها على أي أساس مادي محسوس. والمراد بالبنية ليس هو الهيكل التحتي الباطني للأشياء، لأن ذلك الهيكل إنما هو شيء مادي يُحس. أما البنية فهي العلاقة غير المرئية القائمة بين الأشياء أو أجزائها بعضها ببعض. ومن مواصفات هذه البنية:

1: أنها شيء زائد على مجموع العناصر المختلفة لشيء ما، مثل كون الجسم الإنساني متضمناً لما يسمَّى الروح علاوةً على تركبه من عناصر مادية مختلفة. على ذلك فالبنية إنما هي نظام أو دستور (code) مستتر داخل الأجزاء المختلفة للشيء. وقد ألقى ليفي شتراوس (Claude Levis Strauss) ضوءاً على هذه النقطة من خلال دراساته في الأنثروبولوجيا حيث قال: إن الذي يظهر لنا عند تحليل الأساطير هو أنها ليست مجموعة من القصص المثيولوجيا المتنوعة فحسب، وإنما هي شيء رمزي زائد على ذلك كله يوحي بإيحاءات مختلفة كثيرة. فالتصور للكرسي مثلاً ليس مهماً كما رأى أفلاطون بأنه يمكننا أن نصنع كرسياً آخر إذا انكسر الأول، لأن تصوره يُوجد في الذهن. أما البنيويون فلم يولوا اهتماماً لمثل هذا التصور الذي له معنى محدَّد يقيِّده في حدود الزمان والمكان، في حين البنية إنما هي وحدة متكونة من العلاقات التي هي أكبر من أن تُحدَّد.

2: أن البنية نموذج (pattern) متغير في كلِّ لحظة من لحظات الزمن. وهناك حفر وأخاديد (grooves) غير منظورة متواجدة في هذا النموذج يتماسك بها بناؤه

رغم هذا التغير المتجدد. بتعبير آخر، يشتمل النموذج على خيوط وعلاقات تنهدم وتتشكل داخل البنية التي لا تبديل لها. ونمثِّل لذلك بوجه الإنسان الذي يتغير على مرور الزمن، لكن القسمات الحقيقية للوجه تبقى كما هي تحت سطح المتغيرات، أو مثلما يجري الماء في الجدول أو القناة متموجاً داخل الحوض ومتقيداً بالضفتين، لكن البناء الحقيقي وراء ذلك يبقى كما هو رغم هذه الحركة الدائمة والتغير الدائب. ومع أن الضفاف لها وجود مادي محسوس، لكن البناء النموذجي هو شيء لا يُحس. ومثله في ذلك مثل النموذج أو المثال الأعلى (archetype) عند علماء النفس الذي ينطوي على أخاديد غير محسة تبني وتشكل النموذج. وبإمكاننا أن نشبِّهه – باستعارة المصطلح الفلكي – بالثقوب الكونية السوداء (Black Holes) التي اشتملت على طاقة جامدة إلى جانب كون الزمن متوقفاً فيها، والتي انبثقت منها مظاهر الكون المختلفة عند حدوث الضجة الأولية الكبرى (Big Bang).

3: أن البنية نظام مضبوط له أجروميته المعينة (grammar) أو دستور خاص به (code). وإذا دخل هذا النظام شيءٌ فإنه لا يدخله محتفظاً بخصوصيته المتفردة، وإنما يتبع النظام الذي دخل فيه، مثلما يفقد زيد خصائصه الشخصية حينما نستخدم اسمه في جملة نحوية بحيث ينخرط في سلك القواعد كفاعل أو مفعول به أو نائب فاعل إلى آخر هذه الوظائف النحوية، أو كما يختار شخص من الأشخاص وظيفة أو عملاً معيناً ليصبح بذلك، أي بحكم مهنته، معلماً أو كاتباً أو نجاراً أو حدَّاداً إلى آخر هذه المهن. كذلك الأمر بالنسبة لبنية الذهن الإنساني الذي لا يقبل أي فكر غريب عليه إلا بتحفظ في بداية الأمر، ثم يأخذ في إخضاعه لمعتقداته ويصهره في بوتقته الخاصة المتكونة مما تربَّى عليه من خلفيات.

4: من الخصائص البارزة للبنية كذلك أنها تقيم نفسها على أساس الثنائيات أو الازدواجيات المتقابلة (Binary Opposition). فالشيء المفرد ليس له بناء

متميز إلا عندما ينقسم إلى جزئين، ويأخذ كلُّ جزء منهما موقعاً له خاصاً به مقابل الجزء الآخر. وحينئذ تبرز بينهما علاقة متميزة: تلك التي تنبثق منها العلاقات الأخرى الكثيرة، مثلما تتولد انعكاسات لا حصر لها عندما نضع مرآة مقابل أخرى. وهذه الازدواجية وما يتولد عنها من علاقات مختلفة (تأخذ في الاتساع باطِّراد)، يسمُّون ذلك نموذج البنية.

ومن نافلة القول أن نشير إلى كون هذه الفكرة – فكرة الثنائية أو الازدواجية – مأخوذة من البنية الذهنية للإنسان الذي يعرف الشيء بضده كما قال المتنبي: وبضدِّها تتبيَّن الأشياءُ[3]، أو كما قال شاعر عربي آخر دوقلة المنبجي:[4]

ضدَّان لما استجمعا ، حسُنا والضِّدُّ يُظهر حسنَه الضِّدُّ

وعلى فكرة، هذه الازدواجية التي لقيت رواجاً كبيراً في القرن العشرين من خلال دراسات البنيويين، نرى تصورها موجوداً منذ قديم الزمن: في الفكر الديني والمثيولوجي والصوفي والفلسفي، وفي التصورات الفردية المحلية والاجتماعية الدولية المختلفة. فثنائية الخير والشر، وإلهان لكل منهما، والأرض والسماء، والخالق والمخلوق؛ وإبراز الفرق بين الذكر والأنثى، والجسم والروح، والجزء والكل، والوجود والموجود؛ وكذلك قسمة الشرق والغرب، والمحافظة والليبرالية، والتخلف والتقدم، والسذاجة والشطارة؛ كلُّ هذه الأشياء وغيرها مما لا يُعدُّ ولا يُحصى تدل على كون فكرة التضاد مغروسة في الفكر الإنساني – شعورياً كان أم غيره – منذ بدء الخليقة. أما الوسطية والمساواة التي تناشد بها بعض النظريات والحركات، وتدَّعيها كل الحكومات والمؤسسات، فإن هي إلا سُوَيْعات في تاريخ الزمن الإنساني القصير ولُحَيْظات في الزمن الكوني الطويل الأطول من كلِّ شيء.

نشأة البنيوية:[5]

هذا، وكان النمط الفكري السائد في الغرب قبل نشوء نظرية البنيوية قد

استند إلى أرضية العلة والمعلول أو السبب والمسبَّب (cause & effect). وذلك على أساس فرضية علمية قالت بوجود مادي محسوس للأشياء، وكون كلِّ فعل نتيجة للسابق وسبباً للتالي. عليه فتسير الأمور كلُّها في الحياة والكون على خطٍّ مستقيم ما بين البداية والنهاية، وكلُّ شيء – بتعبير عامي – أربعة وعشرين قيراط. ولكن ما إن طلع القرن العشرون إذ رفضت الفيزياء الحديثة هذه النظريات السابقة، وقالت بكون الشيء وحدة منطوية على العلاقات (relations)، إذ كان الشيء لا يُعرف إلا من خلال ارتباطه وعلاقته بالشيء الآخر. وهذا ما أطلقوا عليه النسبية (Relativity) التي توصلوا إليها نظراً لأنه لا يمكن تصور الكهرباء وحدة مادية محسة: الأمر الذي أدى إلى تغيير مجرى الفكر العلمي الذي اتَّخذ الآن من الطاقة الكهربائية وحدة أساسية قاسوا عليها الأشياء الأخرى. فاكتُشف الكُهَيْرِب (electron) وأشياء أخرى غير محسوسة (خاصة النيوترينو neutrino في نظرية الكمومية (Quantum Theory)[6] كانت بمثابة الخيوط الرابطة بين الأشياء كعلاقات متصورة في الذهن. ومن هنا نشأت نظرية البناء التي أصرت على اعتقاد فكرة كون الحقيقة عُقَداً وأناشيط من العلاقات الرابطة.

وهذه النظرية الجديدة لم تبق منحصرة في نطاق الفيزياء والعلوم الطبيعية، وإنما تعدت إلى المجالات الإنسانية مثل علم النفس والفلسفة والأنثربولوجيا والألسنية أو علم اللغة. فقدم دي سوسير (Ferdinand de Saussure) ازدواجية اللغة (langue) والكلام (parole). فهناك – على ما قال – نظامٌ عامٌّ للغة كأجرومية أو قواعد أساسية يُوجد خلف ما نتفوه به من كلام يربط فيما بين الكلمات والجمل في حديثنا. وقد استخدم نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) مصطلحي الأهلية أو القدرة (competence) والإنجاز أو الأداء (performance) لكلٍّ من اللغة والكلام عند سوسير بتعديل يسير في الدلالة. (وهي ثنائيةٌ تُعرف في الفكر الكلامي العربي بالموجود بالقوة والموجود بالفعل أخذاً في ذلك من اليونان).[7]

وقدم برجسون (H. Bergson) نظرية المدة الزمنية الشاملة (Duration) مقابل فكرة الزمن المتتابع المتسلسل (Serial Time). فقال إن الأزمنة الثلاثة جميعها تتواجد في هذه المدة الشاملة في الوقت نفسه كعلاقات تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل. (وبالمناسبة، أسمى إقبال – الشاعر المفكر – هذه المدة البرجسونية في كتاباته الفلسفية بالحاضر أو الآن السرمدي (eternal now)، وعد الزمن وحدة غير متجزئة عند الكلام على تصور الزمن الإلهي).[8]

واكتشف فرويد (Sigmund Freud) اللاوعي (Unconscious Mind) الكامن وراء دنيا الوعي والشعور (Conscious Mind)، كما أن يونغ (Carl Gustav Jung) قدم – مقابل اللاوعي الفردي – فكرة اللاوعي الجماعي أو الجمعي (Collective Unconscious) الذي هو عبارة عن حُفَر وأخاديد (grooves) غير محسة من النماذج العليا (archetypes) تشكل الميول الطبيعية في صورة أمور متخيلة عند الناس جميعاً بعد أن كانت في مجموعات منهم متفاوتة.

أما في الأدب فقدم تي أيس إيليوت (T.S. Eliot) نظرية الرواية أو التقاليد (Tradition Theory) التي هي بنية ينعكس فيها الماضي كله على الحاضر بشكل اندماجي امتزاجي وفي قوالب جديدة على مستوى الإبداع.

فالبنيوية إذن لها أبعاد متعددة بتعدد الدراسات العلمية والإنسانية، وبإمكاننا أن نضيف إلى هذه الأبعاد المتنوعة السابقة البعدَ السياسي كذلك[9]، إلا أن الذي يهمنا من ذلك كله في هذا المقال هو ذلك البعد الذي يرتبط بالنظرية النقدية الأدبية في المحل الأول. أما الوصول إلى ذلك فلا يتأتى إلا من خلال ما قدمه ليفي شتراوس من أفكار وتطبيقات في مجال الأنثروبولوجيا أولاً بأول. وقد أفاد فيها من لغوية دي سوسير وياكوبسون (Roman Jacobson)، كما توازى فكره في هذا الصدد مع الفكر الاجتماعي عند دوركايم (E. Durkheim) والتحليل النفسي عند فرويد.[10] إذن فلا بد من التعرض لهذه الأفكار أيضا لبلورة الفكر البنيوي المدروس. وبما أن الذي يعنينا في هذا الصدد

هو ما قدمه دي سوسير من نظرية لغوية وما قام به ياكوبسون من تقديم نظرية الأدب الإيصالية، فإننا سوف نستغني بالعرض لآراء كلٍّ من سوسير وياكوبسون، ونضرب صفحاً عن أفكار أخرى إلا لبيان التشابه بينها وبين البنيوية بعد ذلك.

نظرية دي سوسير اللغوية:[11]

قدم دي سوسير آراء لغوية جديدة في شكل محاضرات ألقاها لطلابه في جنيف (ما بين 1909-1913م) جُمعت بعد موته باسم: ***cours de linguistique générale*** (دروس في علم اللغة العام) سنة 1916م، وجعلت منه الرائد الأول لعلم اللغة الحديث. وتتلخص نظريته في النقاط الخمس التالية:

1: أن اللغة نظام من العلامات أو المسمَّيات (sign). والمسمَّيات على ثلاثة أنواع: أولها أيقونة (icon) أو نَصَمة نحو الصورة أو الرسم الذي ينطبق على شخص معين. والثاني ما سُمِّي بالمؤشِّر أو المرآة والدليل (index) نحو كون الدخان دليلاً على اشتعال النار. أما ثالث هذه الأنواع فهو الإشارة (symbol) على نحو ما نعتبر تقديم شيء من الحلويات أو الفواكه إيذاناً بانتهاء الطعام جرياً وراء التقليد السائد المعين. والمسمَّى اللغوي يدخل تحت هذا النوع الأخير حيث يتم الاتصال بين الشكل والفكرة. وهذا ما أسماه سوسير بدالٍّ لغوي أو صورة صوتية (signifier) ومدلول أو فكرة (signified). وذلك على نحو ما ننطق بكلمة الكرسي مشيرين بها إلى فكرة الكرسي نفسه. وهذه التفرقة بين الصورة الصوتية والفكرة هي للتوضيح والبيان فقط، وإلا فلا يمكن الفصل بينهما، ومثل ذلك مثل وجهي عملة واحدة.

2: أن المسمَّيات اللغوية (Linguistic Signs) يطلقها الإنسان على الأشياء اعتباطاً دونما تسويغ. فهي مسمَّيات عفوية تعسفية (arbitrary) ليس لها أي ارتباط بما تشير إليه من الأشياء والأفكار. فقد سُمِّي الكرسي كرسيّاً من غير مبرِّر، وكان بإمكانهم تسميته زجاجاً عندما احتاجوا إلى وضع كلمة يتَّفقون عليها لخيال الكرسي مثلاً. (أما إذا قلت بأن الكلمات في اللغة العربية خاصة لها مواد أو

جذور تحمل معنى مشتركا لكل المشتقات من كل واحد منها، فلا بد من أن يوضع في الاعتبار أن هذه المعاني خُلعت على الجذور عفواً واعتباطاً، وليست هناك أي علاقة منطقية بين الجذور وما تدل عليها من أفكار إطلاقاً).

3: أن نميّز بين اللغة كنظام (langue) واللغة كاستعمال سواء أكانت كلاماً أم كتابة (parole). فاللغة نظام غير مرئي يُوجد خلف ما نلفظ به من كلام في حديثنا. ومثَّل سوسير على ذلك بلعبة الشطرنج التي لها قواعد عامة تُوجد في أذهان اللاعبين بشكلها المجرد. أما ما يتولد من علاقات توافقية مختلفة أثناء لعبهم الشطرنج فتقوم على أساس هذه القواعد الموجودة الكامنة وراء كل ما يحصل بالفعل.

4: أن العلاقات اللغوية تقوم على أساس الاختيار المتقابل والاتصال المتسلسل. وذلك ما سمَّاه دي سوسير بالتقابل الاختياري أو العلاقات الرأسية (Paradigmatic Relations) والتسلسل التركيبي أو العلاقات الأفقية (Syntagmatic Relations). فإن المرء يختار كلمات مناسبة للدلالة على شيء معين نظراً إلى علاقات ثنائية لها مع كلمات أخرى في ثروته اللغوية. ثم يرصفها في صورة جملة أو عبارة على أساس علاقات هذه الكلمات المختارة بعضها ببعض. فالأولى من العلاقات إحلالية استبدالية، أما الأخيرة فهي سياقية اتصالية.

5: أن اللغة يجب أن تُدرس دراسة وصفية (Synchronic Study)، أي في مرحلة معينة من مراحل تطورها التاريخي. وقد جرت العادة قبل دي سوسير بدراسة اللغة من خلال منظورها التاريخي (Diachronic Perspective)، إذ كان اللغويون قد اتخذّوا من التغيرات والتطورات اللغوية على مدى تاريخها موضوعاً للدراسة. لكن سوسير ركَّز على اللغة بوصفها نظاماً وصفيّاً (descriptive) وحسب.

ويجب التنويه في هذا المقام بأن النظرية النقدية الماركسية في فرنسا رفضت البنيوية فيما بعد على هذا الأساس الأخير نفسه في نظرية دي سوسير، فلم تقبل

الدراسة الوصفية التي قامت على أساسها البنيوية على حساب الدراسة التاريخية التي هي جزء لا يتجزأ من الفكر الماركسي.

ياكوبسون، نظريته الصوتية ورسومه النقدية:[12]

كان ياكوبسون (Roman Jacobson) واحداً من قواد الحركة الشكلية الأولى المدعوة بأبوجاز (OPOJAZ) أو (POYAZ) في الاتحاد السوفييتي السابق، كما كان من رواد مدرسة براغ اللغوية (Prague Linguistic School) فيما بعد، وزامل شتراوس (Levis Strauss) كمحاضر في نيويورك حيث اشتركا معاً في دراسة بعض الأعمال الأدبية المختارة. ومن ذلك ما قاما به من التحليل النقدي لقصيدة شارل بودلير المعنونة بالقطط.[13]

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسة التحليلية لقصيدة بودلير تقدَّم نموذجاً تطبيقياً من قبل الأسلوبيين والبنيويين على السواء، مع كون البنيوية قد وردت مجال النقد الأدبي متأخرة عن الأسلوبية. فالأسلوبية على ذلك داخلة في إطار البنيوية الشامل، وإن كانت هناك جوانب اختلاف عديدة بينهما على أساس كيفية تقديم النتائج بالقطعية الموضوعية أو غيرها، وكذلك من حيث الخطاب الفلسفي.

أما نظرية ياكوبسون الصوتية فتتمثل في الثنائيات المتعارضة بين حروف العلة الأصلية هي: الألف (a̲) والواو (u̲) والياء (i̲)، والحروف الصامتة الأساسية عند اللغويين هي: الكاف (k) والباء (p) والتاء (t). ورسم لها ياكوبسون مثلثاً على النحو التالي:

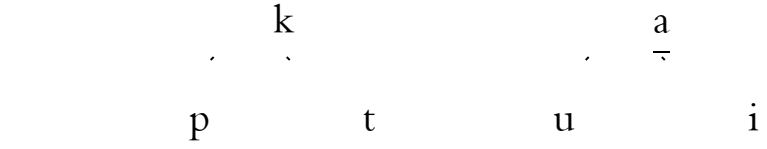

وقد استعار منه ليفي شتراوس هذا المثلث واستعمله في رسم مثلثه في الأطعمة أثناء دراساته في الأنثروبولوجيا. أما في الأدب فقد استخدم النقاد ثنائية هذه الحروف

المتقابلة لدراسة صوتية لنص من النصوص.

وثمة نظرية إيصالية عامة عند ياكوبسون ضرورية لفهم ارتباط النظريات النقدية المختلفة بعضها ببعض وتشكيل كلٍّ منها على أساس الثلاثية الأدبية (the Literary Troika) المعروفة، ومن خلال هذه النظرية نستطيع أن نتعرف على كيفية انبثاق البنيوية بصورة مفهومة. فهناك ثلاثة أشياء أساسية لوجود رسالة أدبية ودراستها هي: المرسل والمتلقي وبينهما تتوسط الرسالة. فالمرسل يبعث برسالته إلى المتلقي، ولا يتم بثها إلا عن طريق الشفرة أو النظام اللغوي الخاص المتفق عليه عند كلٍّ من المرسل والمتلقي (في معظم الأحوال وجلها إن لم تكن الكل)، كما أن هذه الرسالة إنما ينشئها المرسل من خلال منظور أو سياق معين. ولا بد من اختيار وسيلة اتصالية معينة لدى الإنشاء والإرسال. على ذلك فنجد أنفسنا إزاء الرسم التالي:

المنظور أو السياق

المرسل >----------> الرسالة >----------> المتلقي

الوسيلة الاتصالية والشفرة اللغوية

وبإمكاننا أيضاً أن نرسم ذلك بهذه الصورة الآتية:

السياق

المؤلف >----------> النص >----------> القارئ

الشفرة اللغوية

وعند ياكوبسون أن كلَّ عنصر من هذه العناصر السابقة يحمل معه شيئاً – قل أو كثر – من التعامل اللغوي، فلذلك نستطيع أن نضفي عليه روحاً من هذا التعامل كالشكل الآتي:

الإحالي أو المرجعي (Referential)

العاطفي >-----> الشعري >-----> التعبيري أو الإشاري أو النزوعي

(Emotive) (Poetic) (Connotative)

ما فوق اللغوي أو الميتالغوي

(Meta-Linguistic)

ونستخلص من ذلك كله أن النص إذا نظرنا إليه من وجهة نظر المؤلف تبرز إلينا الناحية العاطفية للأدب، وإذا ركَّزنا على السياق اتَّضحت لنا قيمة الإحالة المرجعية والمنظور التاريخي الاجتماعي. أما إذا نلفت انتباهنا إلى النص نفسه وجدنا أنفسنا أمام الشكل اللغوي وشعريته. كذلك تأخذ الناحية التعبيرية أو الإشارية أهمية من وجهة نظر القارئ. أما إذا أولينا الاهتمام للعنصر الميتالغوي تتبلور عندئذ منزلة الشفرة اللغوية التي توحي بدلالات مختلفة كثيرة.

ولإيضاح ذلك أكثر نستطيع أن نرسم هذه الصور بشكل رابع يبرهن على محفزات لإيجاد مدارس ومناهج أدبية مختلفة، ويبيِّن الميزات الأساسية لها. وهاك الرسم:

الماركسي

الرومانسي >--------> الشكلي >--------> الموجَّه من

البنيوي قبل القارئ أو المبني على

استجابة القارئ

ويعني هذا أنه إذا درسنا الأدب جاعلين من المؤلف أساساً للدراسة تبرز النظرة الرومانسية التأثرية للأدب والنقد. وإذا اعتبرنا النص وقراءته الفاحصة أساساً لهذه العملية تظهر النظرية النقدية الشكلية إلى حيز الوجود. أما التركيز على المنظور التاريخي والملابسات الاجتماعية للأدب فإنما يولِّد ذلك النظرة الماركسية في النقد الأدبي، كما أن اعتبار القارئ أساساً للعملية النقدية يجعل النقد مبنيّاً على استجابة القارئ أو على كيفية تلقِّيه النص. هذا، ولكن على خلاف هذه النظريات الأربع، ترفع البنيوية قواعدها على حجر أساسي من الشفرة اللغوية (Linguistic Code) أو النظام ما فوق اللغوي (Meta-Linguistic System)، مع كونها قد تأثرت وأفادت من تلك السابقة بالضرورة.

فتأثرت بالماركسية تأثراً سلبيّاً على العموم، فرفضت الدراسة التاريخية وأقامت نفسها على وصف الظواهر عند لحظة معينة من لحظات الزمن. وإن كان

هناك من البنيويين من يؤمن بالأثر التأريخي، لكن عدد هؤلاء قليل جداً.[14]

أما النظرة الرومانسية القائمة على ذات المؤلف فأفادت منها البنيوية رؤية شاملة خاصة مأخوذة من النصوص التراثية وغيرها التي اختزنت في ثقافة المؤلف وانعكست على النص بشكل ذاتي متفرد – أفادت البنيوية من الرومانسية هذه الرؤية الخاصة التي سمَّوها بالأدبية (literariness) أو الشعرية (poetics) التي تجعل النص أدبيّاً، والتي لا نص يُبدع دون الاحتكاك بها. وبذلك ترتبط بنية النص ببنى النصوص الأخرى كارتباط ذات اللمؤلف بما في الخارج.

أما النقد المبني على استجابة القارئ فكأن البنيوية أخذت منها فكرة إشراك القارئ في عملية التحليل دون أن يكون النص مرتبطاً بالضرورة بانطباعات القارئ الذاتية الخاصة، كما أن النقد النصي أمدها بفكرة كون النص مرتبطةً أجزاؤه بعضها ببعض.

فالناقد البنيوي عندما يحلِّل نصّاً من النصوص الأدبية فإنه لا يحلِّله على أساس صلته بالمؤلف ولا لعلاقته مع القارئ ولا من حيث السياق الاجتماعي التاريخي، وإنما يحلِّله باعتبار طبقات متراصَّة وظلال متشعبة من الأفكار والمعاني الكامنة فيه، لا من حيث إيجاد هذه المعاني من تلقاء نفسه وتفسيرها تفسيراً مقنعاً، وإنما يترك الباب مفتوحاً لكلِّ طارق تزوَّد بمعرفة الخيوط الرابطة من البنية الأساسية المتفق عليها عندهم عادةً.

وهذه هي نقطة التحول إلى ما بعد البنيوية (Post-Structuralism) من التفكيكية (Deconstruction Theory) وغيرها من طرق التحليل النصي. فقد اعتبر رولان بارت (Ronald Barthes) – وهو المبشر الأول بما بعد البنيوية – التحليل النصي هدفاً في ذاته، دون أن يُتوصل بذلك إلى المعنى الأساسي أو المركزي المستتر فيه، وإنما يحلِّل الناقد النص – في نظره – من أجل التحليل (analysis) والتشريح (dissection) وتقشيره قشرةً بعد قشرة. وذا هو المطلوب في حدِّ ذاته. فالمقصود من قراءة أو تحليل النص عند رولان بارت هو الاستمتاع

أوالتلذذ الذي شبَّهه بالنشوة الجنسية (jouissance/ ecstasy). وقد تجاوز بارت حدود النص الأدبي إلى نص الكون، فقال:[15]

".. هكذا الأدب عند رفضه سرّاً كامناً أو معنى نهائيّاً مُوْدَعاً في النص (نص الكون كذلك) إنما يطلق عنان التفكير اللاعَقَدي الذي هو نشاط ثوري لكونه يرفض المعنى المحدَّد، ومن ثم يرفض الإله في النهاية."

فإذا لم يكن معنى في النص الأدبي، وبالتالي في النص الكوني، فليست ثمة حقيقة عظمى تضفي على الكون معنى. وقول بارت قبل ذلك بـ:"موت المؤلف وكتابه النص نفسه" استلزم رفض الخالق لهذا الكون على ذلك. وهذا إنما يبدو كصدًى لما بشَّر به نيتشيه (Nietzsche) في الفلسفة من موت الإله.

على كلٍّ، فبذور هذا القول كانت موجودة في البنيوية منذ البداية حيث ذهبت إلى إثبات العلاقات التي تشكِّل النموذج الخيالي دون أن يكون هناك مركز ثابت للأشياء. فها قد ظهرت النتيجة إذ رفض رولان مركزاً للكون: الإله. ويبدو أنه قد ذهل من رؤية هذه الكثرة الكاثرة التي حالت دون وعي الحقيقة العظمى بدل أن تدل عليها.

ولكن عندنا أن هذا الشعار الذي أرادوا فهم الأشياء تحت لوائه إنما هو شعار مبنيٌّ على المغالطة التي أدَّت إلى رفض المركز أو الحقيقة الكامنة وراء هذه الكثرة المذهلة. كما أن الذين أثبتوا الوحدة مع إنكار الكثرة من الفلاسفة — ومنهم الصوفيون — فقالوا بوحدة الوجود، على الرغم من إقرارهم – من زاوية أخرى – بالكثرة من خلال التعينات أو التنزلات الستة[16] من المظاهر الطبيعية المختلفة.

هذا، ولكنه لا يجوز، فيما أعتقد، أن نهبَّ ونتَّهم — على طول – كلَّ فلسفة أو فكر مطروح للمناقشة بأنه زندقة أو سفسطة محضة، وإنما يُوجد فيه بالضرورة نبذة عن الحقيقة أو جزء منها: تلك الحقيقة العظمى الشاملة الجامعة التي

ليس بمكنة أي إنسان أن يستوعبها كلَّها، بل يأخذ منها بطرف أو أطراف ليصل بذلك إلى معرفة وفهم ما يكون مطلوباً وضرورياً معرفته وفهمه في إطار معين من الدراسات العلمية والإنسانية.

أما الشعارات والتسميات فقد تكون خاطئة، بل خارجة على المعتقدات الدينية والاجتماعية في بعض الأحيان، ولكنها مع ذلك تأخذ نصيبها من ذلك الجزء من الحقيقة الذي يتعرض له المفكِّرون لبلورة جوانبها المختلفة، ثائرين في ذلك على ما يكون قد جرت العادة من قبل بإقراره والتسليم به من الأمور الفكرية التي لا يُعاد فيها النظر لاستخراج المفاهيم المناسبة للعصر المعيش فيه، والتي تكون قد أصبحت كليشهات (clichés) لا تأثير لها في النفوس لاستفزازها على الرقي والتقدم بنفض غبار الجمود وتملصا من الركود. إذن فلا مندوحة عن إحداث ضجة يفور بها الزمن من آن لآن لتحريك الماء الآسن من الفكر الإنساني، فيُوخز الفرس الحضاري بمهماز كي لا تتوقف الحياة الفكرية عن إثراء نفسها، دون أن يُلوى في ذلك على ما إذا كانت هذه الأفكار المستجدة طُرحت من قبل الشرقيين أم جاءت من الغرب. يقول إقبال – الشاعر المفكر – ما معناه:[17][18]

> "لا تترك الشرق عند الأخذ والاستفادة، ولا تتجنب الغرب في الطلب والاستزادة. إن الطبيعة توصيك بأن (تسرق النار لقومك و) تجعل من كلِّ ليلة صباحاً."

تأثر البنيوية بالمدارس النقدية السابقة عليها والتشابه معها:[19]

وبعد هذا الاستطراد غير المقصود، نعود إلى ما كنا بصدده من بيان تأثر البنيوية بالنظريات الأخرى وتشابهها معها. فالبنيوية تأثرت بالشكلية (Formalism) الروسية التي تعرضت للكلية (totality): كلية النص، وركَّزت على طريقة الإيحاء بالدلالة دون التصدي لدلالة معينة بذاتها. والأمر هو نفسه عند البنيويين الذين تبنَّوا هذه الفكرة وطوَّروها بشكل واسع. كذلك اهتدى الشكليون

إلى تحليل النص كمحاولة لاكتشاف العلاقات بين مكوناته المختلفة واستخراج المبادئ العامة التي تحكم الاستخدام الأدبي للغة، منها: نظم الجملة (syntax) في بِنَى الروايات السردية خاصةً، والاستبدالات الأدبية الشعرية (literary/ poetic paradigms). على ذلك فإن الشكليين هم الذين اتَّجهوا أولاً بأول إلى التعامل مع النص اللغوي كنظام قبل أن يركِّز البنيويون على مثل هذه الأشياء. وذلك على الرغم من كون الشكليين يميلون إلى الشكل اللغوي الذي انطلقوا منه لتأسيس ما سمَّوه بعلم الأدب (Science of Literature)، ولكنهم جاوزوا هذا الطور البدائي وأخذوا يدرسون الأدب على أساس ما يسمَّى باستعارة النسق ليفهموا النصوص باعتبارها النسق الأدبي العام (Meta-System).

وهناك فكرة العنصر الغالب أو المهيمن (the dominant) التي نقابلها في تحليلاتهم النصية، وهي نقطة جوهرية عند ميخائل باختين (Mikhail Bakhtin)، وقد اعتبرها ياكوبسون فكرة بنيوية متقدمة لكونها قد ركَّزت على تماسك العمل الأدبي في بنائه في نظام كلي شامل من أعمال كاتب ما. كذلك استخدموا كلمة البنية كثيراً في كتاباتهم، مما جعل الشكلية بنيوية مبكِّرة في نظر كثير من النقاد.

أما الماركسية (Literary Marxism) فأثرت هي الأخرى في البنيوية، إذ كانت شريحة من البنيويين تعتقد أن التصرفات الفردية في الخطاب الأدبي (literary discourse) لا يمكن فهمها إلا من خلال تلك الأنساق الدلالية التي تولِّدها وتربطها بالواقع الخارجي باعتباره أحد عناصر البنية التحتية للكلام. ولم يتوصلوا إلى ذلك إلا في ظلال الفكر الماركسي الذي ينظر إلى الأشياء باعتبارها ذات تاريخ ومتأثرةً بما سبق. وهذا ما أثار الجدل فيما بين البنيويين أنفسهم.[20]

أما النقد الجديد (New Criticism) فكان أصلاً قد جاء لشن الحملة الدفاعية ضد التركيز على الجانب الاجتماعي في النقد الأدبي وخلاف الميل إلى الصناعة الحديثة والتعصب للعلم الحديث في التحليل النصي، ولكنه سرعان ما تحول إلى قوالب جامدة من المبادئ النقدية الأكاديمية، فجاءت البنيوية لسدِّ

الخلل وردِّ اعتبار جوانب شتَّى للأدب، وسُمِّيت أولاً بأول النقد الأكثر جدةً (New New Criticism). فهذا أول ما يلفت نظرنا إلى ما بين النقد الجديد والبنيوية من التشابه والتأثير والتأثر. كذلك لا نستطيع أن نفرِّق بين دلالة البنية عند كل من النقاد الجُدُد والبنيويين، إلا أن هؤلاء يركِّزون على الجانب الاصطلاحي النظري والمواصفات الفنية العامة في الأدب، في حين أولى الجدد اهتماماً للنص الأدبي باعتباره عملاً متفرداً ذاتيّاً قبل أن نلم شتات الأعمال المختلفة وننظمها في سلك جامع من السمات المشتركة. كلُّ هذا، ولكن كلا الفريقين يتمسك باستقلالية الأدب عن الواقع الخارجي إلا الجزء الماركسي من البنيويين.(21)

هذا، وإذا حاولنا أن نرسم خطة تطورية لهذا الالتقاء والتأثير بين النظريتين نجد أن ريتشاردز (I.A. Richards) الذي يمثِّل البدايات الأولى للنقد الجديد أكَّد مقولتين اثنتين مهمتين في رسمه مبادئ النقد الأدبي (Principles of Literary Criticism) وفي محاولته لتحديد معنى المعنى (Meaning of Meaning) – الكتابين له. والمقولتان هما: إن الشعر لغة، وإن اللغة معنى في شفرة (code). وهو في هذا بعيد عن أفكار دي سوسير وياكوبسون اللغوية، ولكنه إرهاص مبكِّر بالقول بوجود نسق أو نظام كلي للغة، كما أن ريتشاردز أثار فكرة الأضداد والنوازع المتعارضة (Binary Oppositions) التي تحتل مكانة بارزة في النظرية النقدية البنيوية.

ثم هناك ناقد جديد ينتمي إلى ما سُمِّي بالمرحلة المفصلية بين النقد الجديد والبنيوية، هو نورثروب فراي (Northrop Frye) الذي مهَّد لظهور البنيوية على ساحة النقد الأدبي، وكتابه تشريح النقد (Anatomy of Criticism) يُعتبر دراسة بنيوية مبكِّرة مبنية على مقولات النقد الجديد، وقد بحث فيه عن العلاقة الرابطة بين النص الأدبي المعين والنصوص الأدبية الأخرى كأنه أراد بهذه المحاولة اكتشاف النظام أو النسق العام المعروف عند البنيويين.

وأخيراً يجب الإلمام بالدعائم الأساسية للبنيوية مع التعرف على خطوات مختلفة لدراسة النص الأدبي من وجهة نظر البنيويين.

الأفكار والدعائم الأساسية للبنيوية:[22]

فهناك عدة دعائم أو أسس ترتكز عليها البنيوية وتقدِّم خطابها النقدي من خلالها، منها (وقد أشرنا إلى بعض هذه الأسس فيما سبق):

أولاً: النموذج اللغوي:

تناولنا النموذج البنيوي من قبل بصفة عامة، كما قد تعرضنا لما قامت عليه البنيوية من أفكار دي سوسير اللغوية التي شكَّلت نوعاً من البنيوية اللغوية. فاللغة عنده نظام أو نسق كلي شامل، إذ نحن نبحث عند التعامل مع النظام اللغوي الفردي عن العلاقة التي تصل بين الأنساق اللغوية الصغرى لبناء النسق الكلي المتكامل. وهذا هو النموذج اللغوي الذي أمد البنيوية بأداة تستخدمها في مجال الدراسات الإنسانية، وبخاصة في الأنثروبولوجيا، قبل استخدامها في النقد والتحليل النصيين. وذلك ما فعله ليفي شتراوس في دراساته التحليلية حول الأساطير.

ثانياً: الثنائية أو الازدواجية:

وتعرضنا لها أيضاً، وإن كنا قد تركنا ثنائية الذات والموضوع التي تمثِّل موضوعاً أساسياً في الدراسة البنيوية التي تسقط الذات من حسابها، وتعدها نقيضاً لنفسها. ولذلك أكَّدوا موت المؤلف وقالوا بدراسة النص الأدبي من خلال نفسه أو من خلال علاقته بالنصوص الأخرى التي أمدته بأشياء مختلفة كمكوِّنات له. وهذا ما عناه بارت حينما قال:[23]

> "إن الكتاب لا يكتبون للتعبير عن ذواتهم. إنهم يملكون فقط القدرة على خلط أو تركيب كتابات موجودة بالفعل. إن ما يقوم به الكاتب هو تجميع هذه الكتابات وإعادة نشرها (redeploy). وهو في ذلك يستفيد من القاموس

الضخم للغة والثقافة الذي يكون مكتوباً بالفعل قبل مجيئه... [لأن] اللغة تسبق الذات المبدعة."

وعندهم أن بهذه الدراسة نستطيع أن نصل إلى حقيقة موضوعية دون أن نقحم الذات في عملية تحليل النص ودراسته، لأن الذات تبعدنا عن الموضوعية المنشودة أثناء هذه العملية.

ثالثاً: النسق أو النظام:

إن النسق اللغوي عند سوسير هو الذي بنى عليه البنيويون رأيهم في التحليل البنيوي للظواهر الاجتماعية والأدبية المختلفة بحيث أرادوا بذلك الوصول إلى نظام كلي يربط بين الأنساق أو البِنَى الصغيرة التي هي نفس تلك الظواهر المدروسة أو أجزاؤها التي تخضع لهذا النظام الكلي. وعبارة رولان بارت في هذا الصدد توضِّح الأمر أكثر، يقول:[24][25]

"يقولون إن بعض البوذيين – بفضل صوفيتهم – يستطيعون الوصول إلى مرحلة يرون فيها بلداً كاملاً في حبة فاصوليا. وهذا على وجه التحديد ما أراد المحلِّلون البنيويون.. أن يفعلوه، أي رؤية قصص العالم.. في بنية واحدة مفردة. [فـ]قالوا لأنفسهم: سوف نستخلص من كلِّ رواية نموذجها، ومن هذه النماذج سوف نصوغ بناءً روائيّاً عظيماً سوف يُطبَّق.. على أي قصة..."

وهذا نفس ما قام به شتراوس عند تحليله للأساطير العالمية المتنوعة التي هي أشكال بسيطة عامة جمعها في بؤرة نموذجية. وهذه الأشكال البسيطة المشتركة في مجمل خصائصها من الأسطورة إلى اللغز والأحجية والحكمة والقصة الشعبية تختلف عن الأشكال الأدبية التي هي أبنية راقية من الألفاظ تعمَّدها الكاتب عمداً وقصدها قصداً، وهي ليست عفوية. وبما أن دراسة الأعمال الشعرية – التي تكون قد أغرقت في الذاتية – على حسب النمط المذكور تصعب

على البنيويين المتخصصين أنفسهم، لذا فأولوا عنايتهم للقصة والأشكال السردية من الأدب في تحليلهم البنيوي، لأن هذه الأشكال مبنية على الموضوعية إلى حدٍّ كبير لكونها قد تركَّبت من الأحداث شبه الواقعية وبصورة تلفيقية.

كيفية تحليل البنيوي للنص:[26]

يعتمد التحليل البنيوي عادةً على المستويات التحليلية الأسلوبية[27] هي:

1: المستوى الصوتي لدراسة رمزية الحروف الصامتة والحركات الطويلة وموسيقاها من نبر وتنغيم وإيقاع، والخصائص العروضية للنص الشعري كذلك.

2: المستوى الصرفي الذي تُدرس فيه الوحدات الصرفية – الاسمية والفعلية على الأخص – من حيث وظيفتها في الأداء اللغوي الأدبي.

3: المستوى المعجمي لدراسة الكلمات من أجل الوصول إلى الخصائص الحسية والتجريدية التي تحدِّد المستوى الأسلوبي للنص.

4: المستوى النحوى الذي يدرس تركيب الجمل وتأليفها المعين بما فيه من خصائص دلالية معينة تعين على معرفة الجمال اللغوي ومدى انحراف (أو عدول أو انزياح) التركيب عن النحو التقليدي السائد (deviation).

5: مستوى القول الذي نحلِّل فيه تراكيب الجمل لتتبين الخصائص الأساسية من الثانوية. وهو ما يُسمَّى عندهم في الاصطلاح التأسيس الأولي (foregrounding).

6: المستوى الدلالي الذي يحلِّل معانيَ مباشرة وغير مباشرة وما يتصل من الصور بالنظم الخارجية المرتبطة بعلوم النفس والاجتماع والأساطير.

7: المستوى الرمزي – وهو الأهم – حيث تؤدِّي المستويات السابقة كلَّها دوراً لاكتشاف ما يسمَّى باللغة داخل اللغة.

كذلك فأنهم يراعون في التحليل المحورين الأفقي والرأسي[28] اللذين يتصل الأول منهما بدراسة الأجزاء وعلاقتها بعضها ببعض. أما الثاني فيتمثَّل في الاختيارات الفنية والأسلوبية. ولكنهم لا يستطيعون – طبعاً – أن يحدِّدوا الدلالة

الواحدة المعينة، ولم يكن ذلك قصدهم أصلاً، وإن كانوا موفَّقين في استخلاص مجموعة من العناصر المعجمية والنظمية العامة لجيل أو لمجموعة من الكتاب أو الشعراء المدروسين، وكذلك الأنساق والنماذج الخاصة بكاتب أو شاعر معين دون الإصرار على تحديد المفاهيم والمعاني المستقرأة لكل من هذه العناصر والنظم والأنساق والنماذج. وعدم الإمكان بتحديد الدلالة حدا بالتفكيكيين (Deconstructionists) فيما بعد على أن يدلوا بدلوهم معتمدين في ذلك على التعددية الدلالية. فأنكروا القيمة المرجعية (Referential Value) للوحدة اللغوية خارج النسق اللغوي وأكَّدوا ذاتيته، كما اعتمدوا على القراءة اللصيقة أو الفاحصة (Close Reading) للنص التي تؤدِّي – من خلال التناص (Intertextuality)، أي خلال ما طالعه القارئ من نصوص أخرى سابقة – إلى ما يُسمَّى المراوغة (Indeterminacy)، وهي عدم القدرة على تثبيت الدلالة لكون النص منطوياً على الفراغات والصوامت التي يملؤها ويُنطقها القارئ.

وهناك أشياء أخرى تقوم عليها الدراسة البنيوية، منها العلامة (sign) التي يعتمدون عليها كثيراً بحيث طوَّروها علماً مستقلاً كان دي سوسير قد بشَّر به وسمَّاه سيميولوجيا (Semiology) الذي وضعوا له نسخة أخرى جديدة باسم سيميوطيقا (Semiotics) فيما بعد. وقد تزامن الفيلسوف الأمريكي شارل بيرس (Charles Standard Peirce) مع سوسير في إرساء قواعد هذا العلم الذي "يدرس حياة العلامات (أو المسمَّيات) داخل المجتمع" كما عرَّفه دي سوسير وتحدث منها عن المسمَّى اللغوي الذي يندرج تحت النوع الثالث من المسميات هو الإشارة (symbol)، إذ كانت اللغة عنده نظاماً من المسميات. وقد عرضنا لذلك سابقاً عند الكلام على نظريته اللغوية التي انبثقت منها البنيوية بصورة واضحة جلية لتُطبَّق في دراسات إنسانية أخرى.

البنيوية والنقد الشرقي القديم:[29]

نتناول في هذا الذيل بعض الآراء والأفكار اللغوية والنقدية التي نستمدها

من التقليد اللغوي السنسكريتي الذي هو أقدم وأهم التقاليد الشرقية في هذا الصدد لكون الأمر متصلاً به اتصالاً وثيقاً، كما سنشير إلى ما يُوجد في التقليد العربي من نظرية النظم كذلك. أما ما عدا ذلك من أفكار وتقاليد فنضرب عنها صفحاً في هذا المقال الذي أثقلنا فيه على القارئ لعلنا نأتي إليها في مقال آخر.

أما التقليد السنسكريتي فإنه يرجع إلى أكثر من أربعمائة سنة قبل الميلاد. ويتناول المسائل المتعلقة باللغة والمعنى ويبحثها من نواحٍ ثلاث: من حيث القواعد النحوية، من وجهة النظر المنطقية، ومن الناحية البلاغية الشعرية. وسنأخذ شيئاً من هذه الثلاث ما يهمنا في هذا المكان مما يتعلق بالموضوع.

فأول ما يقابلنا من ذلك هو ما سمَّوه **شكتى**، ومعناها القوة، تلك التي تصل **شبد**، أي اللفظ، بـ*ارتھ*، وهو المعنى، فيحصل لدينا المفهوم من تزاوجهما. وهناك نظريتان اثنتان حول هذه العلاقة بين اللفظ والمعنى عند المناطقة الهندوسيين القدامى. يقول أصحاب مجموعة **ميمانسا** أن العلاقة بينهما طبيعية فطرية قد تولَّدت في نفس تلك اللحظة التي وُلد فيها اللفظ وتلازمه ملازمة مستمرة دون أن تتغير. أما مجموعة **نيايے** من المفكرين و**ويشيشک** فتقولان بأنه ليست هناك بين اللفظ والمعنى من علاقة ما نعتبره طبيعيّاً، وإنما هي صلة من النوع التقليدي استقر عليها الفهم، وأن اللفظ لا يُولد بالمعنى محمولاً في نفسه، وإنما يتعين المعنى بالتقليد الجارية به العادة. فلفظة **اگنى**، أي النار، لا تحمل فيها خاصية الإحراق، كما أن كلمة **تلوار**، وهي السيف، لا يلزم النطق بها قطع اللسان. وقد طرح أصحاب **نيايے** نقطة أخرى طريفة في هذا الصدد بأنه إذا كانت العلاقة بين اللفظ والمعنى طبيعية متلازمة فإن المعاني لا بد وأن تلازم الألفاظ في اللغات العالمية كلها لتكون الأسماء للأشياء هي نفسها في كل اللغات.

فهذا الموقف الأخير من قضية اللفظ والمعنى الذي تبنَّاه **نيايے** هو نفس ما وقفه علم اللغة الحديث في فلسفة سوسير اللغوية حيث لا يُوجد عنده أية

علاقة بين اللفظ والمعنى إطلاقاً، وإنما الذي نجد بينهما من ذلك هي علاقة عشوائية (arbitrary) أوجدها الإنسان بينهما في لغته المعينة حسبما أملت عليه التقاليد وما جرت به العادة في المجتمع البشري المعين. كذلك فإن مفكري **نيايے** قصدوا بـ**شبد وارتھ** إلى المفهوم نفسه الذي استخدم له سوسير مصطلحي الدال (signifier) والمدلول (signified) مؤكّداً أن العلاقة المتواجدة بينهما ليست ناشئة بنفسها، وإنما هي علاقة غير ذاتية أقامها الناس في لغتهم المعينة. ثم إن أصحاب **نيايے** يعتبرون كلاً من **شبد وارتھ** تصوراً ذهنيّاً لهيكل الأصوات والمظهر الذي تشير إليه هذه الأصوات. وهذا نفس ما قصده سوسير بنظام اللغة (langue) الذي يُوجد خلف المظهر أو الاستعمال (parole).

أما اللغويون السنسكريتيون فضبطوا **وياكرن** – هي قواعد السنسكريتية – من خلال دراستهم للغة دراسة وصفية (Synchronic Study) في معظم الأحيان بالمقارنة إلى دراستهم لها من منظورها التاريخي (Diachronic Perspective). أما الكلمات فناقشوها في موادِّها واشتقاقاتها وتصريفاتها في المعاجم اللغوية في الغالب الكثير. وأكبر النحاة واللغويين السنسكريتيين بانيني (**پانني**) وشارحه بتنجلي (**پتنجلی**) لا يدخلان المناقشات غير العلمية المبنية على القياس والافتراض، كما أن كثيراً من المتأخرين لا يدرسون الاستعمال اللغوي للكلمات من خلال تطورها التاريخي، وإنما يحتكمون إلى الاستعمال الرائج الفصيح ويعتبرونه هو الفيصل في كلِّ ما يقومون بدراسته والمناقشة حوله.

وقبل أن نتقدَّم ونأخذ مواطن أخرى من التشابه بين البنيوية وبين ما جاء في التقليد اللغوي السنسكريتي من أفكار، يجب أن ننبّه إلى أن دي سوسير – مؤسس علم اللغة الحديث، والذي انبنت على أفكاره كثير من المدارس اللغوية والنقدية الحديثة، ومنها البنيوية – كان دي سوسير هذا عالماً بالسنسكريتية ومدرِّسها في باريس وجنيف بحيث كونه قد حاز على الدكتوراه في النحو

السنسكريتي، وإن كنا لا نستطيع أن نقطع بأنه أفاد من اللغويات السنسكريتية في كل ما أبداه من آراء وأفكار جديدة في علم اللغة، كما أنه ليس بمكنتنا أن ندل على كيفية هذا الأخذ والاستفادة وندلِّل، لكن الذي يمكن القول به هو أنه جاء بالضرورة تحت تأثير التقليد السنسكريتي من اللغويات دون الإشارة إلى ذلك في محاضراته التي جُمعت ونُشرت بعد وفاته.

والآن نعود إلى ما كنا فيه من بيان عام حول نقاط مشتركة بين البنيوية واللغويات السنسكريتية. فهناك تصور لغوي عند السنسكريتيين يسمَّى ***درويه***، وهو ذلك المعنى الخاص والأصل والأساس الذي تنبثق منه مفاهيم ومعانٍ أخرى كثيرة متقمصة صوراً وأساليب مختلفة متعددة دون أن يتغير هذا الأصل الذي هو تجريد ذهني يُوجد خلف ما يتبدَّى من هذه المظاهر والأشكال المتنوعة. وهذا ينطبق تماماً على فكرة النموذج البنيوي وما نجده عند سوسير من تصور اللغة كنظام (langue).[30]

وأخيراً، يجب الإلماع إلى ما يُوجد في التراث العربي مما يمكن اعتباره إرهاصات أو "استبصارات نحو منهج بنيوي تكاملي على نحو ما أظهرت دراسات عربية حديثة في كلٍّ من مصر وتونس والمغرب بشكل خاص"[31]. من هذه الاستبصارات ما نجده عند ابن خلدون في العلوم الإنسانية، وخاصةً عند عبدالقاهر الجرجاني في الدراسات اللغوية البلاغية بعنوان: اللفظ والمعنى أو العرض والمضمون والعلاقة بينهما.[32]

الحواشي والمصادر

1- عنوان مأخوذ مما عنون به مترجم كتاب Structuralism & Since – From Levi Strauss to Derrid [انظر: ستروك، جون (تحرير): **البنيوية وما بعدها – من ليفي شتراوس إلى دريدا**، ترجمة: عصفور، مُحَمَّد، الكويت، عالم المعرفة، 1996م.]

2- آغا، وزير: ***ساختیات اور سائنس***، لاهور، *مکتبہ فکر و نظر*، 1991م، ص241-243 و245.

3- البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، دار الكتاب العربي، بيروت، 407هـ/1986م، ص149.

4- **القصيدة اليتيمة** (برواية القاضي علي بن المحسِّن التَّنُوخي)، تحقيق وتقديم: المنجد، صلاح الدين، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 1983م، ص03.

5- المرجع السابق، ص244-245.

6- A neutrino has a minimum of about one ten-millionth mass of an electron, the smallest part of an atom. "A neutrino is not affected by the *strong force* that holds electrons, protons and neutrons together in atoms. As a result, it passes easily through matter. Trillions pass through our bodies each minute without doing any damage to our own atoms." [See: Maugh II, Thomas H.: World of Physics Jolted by Finding on Neutrinos, website: ***http://hep.bu.edu/~superk/lat.html***]

7- کاظم، محمد: ***مسلم فکر و فلسفہ–عہد بعہد***، مشعل بکس، لاهور، 2008، ص114– 115، 139– 140، 154– 155.

8- Iqbal, Muhammad: ***The Reconstruction of Religious Thought in Islam***, Edited & Annotated: Sheikh, M. Saeed, Iqbal Academy Pakistan & Institute of Islamic Culture, Lahore, 1989, p. 62.

9- كروزويل، إديث: **عصر البنيوية**، ترجمة: عصفور، جابر، القاهرة، دار سعاد الصباح، 1993م، ص20 وما بعدها.

10- إبراهيم، نبيلة: البنيوية – من أين؟ إلى أين؟، مجلة **الفصول** المصرية، ج1، يناير 1981م، ص171-172.

11- آغا، وزير: **ساختیات اور سائنس**، ص261-266.

12- إبراهيم، نبيلة: البنيوية – من أين؟ إلى أين؟، **الفصول**، ص173-174؛ نارنگ، گوپی چند: **ساختیات، پس ساختیات اور مشرقی شعریات**، لاهور، سنگِ میل پبلی کیشنز، 1994م، ص48-51.

13- هذا التحليل مضمَّن في: Ehrmann, Jacques: ***Structuralism***, Anchor Books, Garden City, N.Y., 1970.

14- **آغا، وزیر: ساختیات اور سائنس**، ص252-253.

15- بارت، رولان: ***Image, Music, Text***، ص147، نقلاً عن: آغا، وزیر: **ساختیات اور سائنس**، ص308.

16- ومن خلال هذه التعينات قدَّم العلماء والفلاسفة والصوفية المسلمون فكرة أو نواة أولية لنظرية التطور واستحالة بعض الكائنات إلى بعض، وقد وفر الغرب فيما بعد شواهد ودلائل علمية لدعمها وعرضها في صورة نظرية متكاملة عن أصل الأنواع وتطورها. راجع ما قلناه بالهامش رقم 19، بغض النظر عن الموضوع وعما قيل في صالح أو ضد هذه النظرية. [حميد الله، مُحَمَّد: المصادر الإسلامية لداروين في نظريته عن أصل الأنواع والتطور، مجلة **الدراسات الإسلامية**، مجمع البحوث الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد، ج16، ع4، صفر 1402هـ/ديسمبر 1981م، ص34– 58]

17- ونص البيت الوارد في قصيدة بصيص الأمل (شعاعِ امید) من ديوان **عصا موسى (ضربِ كليم)**:

مشرق سے ہو بیزار نہ مغرب سے حذر کر فطرت کا اشارہ ہے کہ ہر شب کو سحر کر

وقد ترجمه عبدالوهاب عزام في بيتين كالتالي (والخطاب للشمس في القصيدة):

فلا يحزُنَنْكِ من الشَّرق نومٌ وفي الغرب لا ترهَبِنَّ الشُّرورْ
قضتْ فطرةُ الله أن تُبْدِلي بليل الظَّلام صباحَ السُّفورْ

[اقبال، محمد: **كلياتِ اقبال** (اردو)، كراتشي، فضلي سنز (پرائيويٹ) لميٹڈ ، 2003م، ص733؛ وإقبال، مُحَمَّد: **ضرب الكليم**، ترجمة: عزام بك، عبد الوهاب، القاهرة، مطبعة مصر (شركة مساهمة مصرية)، 1952م، ص78]

18- قال المستشرق المجري الإنجليزي الدكتور لايتنر (G.W. Leitner) يخاطب مواطني الهند أيام الاستعمار:

"My object is to further both native and English learning together. The two combined will lead to a satisfactory result. You must not neglect your sacred inheritance of Arabic, Sanskrit and Persian. When well grounded in this, you can add the superstructure of English thought, English inventions, English science and art, and English civilization. Let us never forget the east for the west and the west for the east."

لاحظ ما قاله في نهاية العبارة: "لا ننسيَنَّ الشرق للغرب ولا الغرب للشرق أبدا". قارن بين هذا وبين ما اعتقده الشرق الأصولي من عدم الاستمداد من الغرب أو رفض وإلغاء أي تقليد علمي أو اجتماعي أو حضاري لم يُجره الشرق، الأمر الذي أدى إلى قول الغربيين بأنهم أناس والباقي بهائم، مستمدين في ذلك من ادعاء اليهود أيضا بأنهم شعب الله المختار.

[Allender, Tim: ***Ruling Through Education: The Politics of Schooling in Colonial Punjab***, New Dawn Press Group, Delhi, 2006, p.131]

19- حمودة، عبد العزيز: **المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك**، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ذو الحجة 1418هـ/ أبريل (نيسان) 1998م، ص184-187.

20- المرجع السابق، ص190.

21- نارنگ، گوپي چند: **ساختيات، پس ساختيات اور مشرقی شعريات**، ص52-53؛ حمودة، عبد العزيز: **المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك**، ص195-200.

22- حمودة، عبد العزيز: **المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك**، ص200-229.

23- المرجع السابق، ص216.

24- المرجع السابق، ص219.

25- نلحظ التناقض بين قول رولان هذا وبين ما سبق أن ذكرنا من إنكارهم للمركز، على أن هذه الوحدة المركزية ليس لها شكل ثابت معين يمكن تمثُّله في صورة مادية محسة. وذلك ما يقرِّب البنيوية إلى بعض الأفكار الفلسفية المستمدة من الآية القرآنية: ((كلَّ يومٍ هو في شأن)). [الرحمن55: 29].

26- فضل، صلاح: **نظرية البنائية في النقد الأدبي**، القاهرة، دار الشروق، ط1، 1419هـ/ 1978م، ص214-215.

27- انظر لنماذج تحليلية: الهامش رقم 14؛ غازي، إنعام الحق: الأسلوبية – نشأتها ومناهجها ونماذج تطبيقاتها، مجلة **الدراسات الإسلامية**، ج39، ع2، الصيف (أبريل– يونيو 2004م/ صفر– ربيع الثاني 1425هـ)، ص197-210.

28- مأخوذاً مما قال به دي سوسير من أن العلاقات اللغوية تقوم على أساس التقابل الاختياري والتسلسل التركيبي. فالأول عبارة عن العلاقات الرأسية الاستبدالية الإحلالية (Paradigmatic Relations) والثاني يتكون من العلاقات الأفقية السياقية الاتصالية (Syntagmatic Relations).

29- نارنگ، گوپي چند: **ساختيات، پس ساختيات اور مشرقی شعريات**، ص337، 343-347، 379.

30- انظر للتفصيل عما يُوجد بين البنيوية والنقد الشرقي القديم من التشابه والتأثير: المرجع السابق، الكتاب الثالث، ص337-488.

31- خشبة، سامي: **مصطلحات فكرية**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م، ص50.

32- انظر للتفصيل حول اللفظ والمعنى: صافي، محمد أمان: قضية اللفظ والمعنى والنقد الأدبي، مجلة **الدراسات الإسلامية**، ج30، ع2، الصيف (1415هـ/ 1995م)، ص25-102.